﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

"لمّا قسَّم الكفارَ في الآيةِ الأولى إلى: مَن يُؤمنُ، ومَن لا يُؤمِنُ، قسَّمَ مَن لا يؤمنُ هَهُنا إلى قِسْمَيْن: مِنهُم مَن يكونُ في نهايةِ البُغْضِ والعداوةِ، ومنهُم مَن لا يكونُ كذلك، فوَصَفَ هَهُنا القِسْمَ الأوَّلَ، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ﴾ مع أنَّه يكونُ كالأصَمِّ، من حيثُ إنَّه لا ينتفعُ البتَّة بذلك الكلام، فإنَّ الإنسانَ إذا قَوِيَ بُغْضُه لإنسانٍ آخرَ، كان مُعْرِضًا عن سماعِ كلامِه، ولا يلتفتُ إليْه، كما أنَّ الصَّمَمَ في الأُذُنِ يمنعُ إدراكَ الصَّوتِ، والعَمَى في العينِ يمنعُ إدراكَ البَصَرِ، فكذا البُغْضُ الشَّديدُ يمنعُ مِن الوُقوفِ على محاسنِ كلامِه، ويمنعُ الوقوفَ على محاسنِ مَن يُعاديه"[1].

مَنْ أَصَمَّ قَلْبَهُ عَنِ الحَقِّ فَإِنَّ سَمعَهُ لَنْ يَنْفَعَهُ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾: المَعنى المحوريُّ: نفاذُ مادَّةٍ لطيفةٍ أو دقيقةٍ إلى أثناءِ شَيْءٍ[2]. والسَّمعُ: حِسُّ الأُذُنِ به تُدْرَكُ الأصواتُ. ويُطْلَقُ السَّمعُ على الأُذُنِ، نَحْو قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ﴾ [البقرة: 7]، ويُطْلَقُ على فِعْلِ السَّماعِ، نَحْو قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشّعراء: 212]، ويُطْلَق أيضًا على الفَهْمِ، وعلى الطّاعةِ، نَحْو قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا﴾ [الأنفال: 31]، وقولِه: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النّساء: 46]؛ أيْ: فهِمنا قَوْلَك، وعَصَيْناك[3].

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 10/337.
(2) جَبَل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (سمع).
(3) الرّاغب، المفردات: (سمع).

2) ﴿ٱلصُّمَّ﴾: صَمَّ صَمَمًا، وصَمًّا: تَعَطَّلَ سَمعُه، فهو أصَمُّ، وهي صَمّاء، والجمعُ: صُمٌّ. يُقال: صَمَّ عن حديثِه: أعْرَضَ، ولَم يرغبْ في سماعِه. والصَّمَمُ: فُقْدانُ حاسَّةِ السَّمعِ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَسْرِيَةٌ وتَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ووَعِيدُ مَنْ عَطَّلَ نَوافِذَ المَعْرِفَةِ

المعنى: ومِن المُشْرِكين مَن يَستمعون إليك أيُّها الرَّسولُ ﷺ إذا قرأتَ القرآنَ استماعًا لا قبولَ فيه، أفَأنْتَ تَقْدِرُ على إسماعِ الصُّمِّ؟ فكذلك لنِ تقدرَ على هدايةِ هؤلاءِ المُنْكِرين المُعْرِضين الَّذين صُمّوا عن سماعِ الحقِّ سَماعَ مَن يَعْقِلُ، فلا تَبْتَئِسْ، ولا تحزنْ، فإنَّ إعراضَهم لا يعودُ إلى تقصيرٍ مِنْك، وإنَّما يعودُ إلى فسادِ فِطْرتِهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمِنْهُم﴾:

الاهْتِمامُ بِبَيانِ حالِ المُقَدَّمِ

الواوُ في قولِه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾ عاطفةٌ، أتْبَعَ تقسيمَهم من حيثُ الإيمانُ بالقرآنِ تقسيمَهم من حيثُ سماعُهُ، فمِنْهم قِسْمٌ يَحضرُ ويَسمعُ، وقِسْمٌ لا يحضرُ ولا يسمعُ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الخَبَرِ في: ﴿وَمِنْهُم مَّن﴾:

﴿وَمِنْهُم﴾ خبرٌ مُقَدَّمٌ و﴿مَّن﴾ مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ، وتقديمُ الخبرِ على المُبْتَدَأِ؛ للاهتمامِ ببَيانِ حالِ المُقَدَّمِ، وهُم هذا الصِّنْفُ مِن المَدْعوّين للإسلامِ.

فِي التَّقْديمِ عِنايَةٌ واهْتِمامٌ بِمَنْ تَتَّجِهُ إلَيْهِم دَعْوَةُ الحَقِّ

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إلَيْهِ اسْمًا مَوْصولًا:

العاقِلُ مَنْ يَمْلِكُ الأَداةَ ويَعْمَلُ بمُقْتَضاها

عُبِّرَ بالمُسْنَدِ إليْه اسمًا موصولًا ﴿مَّن﴾ لتعليلِ الحُكْمِ بأنَّ هؤلاءِ المُشْرِكين لا يَسمعون، ولبيانِ أنَّ العاقلَ هو مَن يَسمعُ ويَعْقِلَ ما سمعَ، لا مَن يَملِكُ أداةَ السَّمعِ، فأداةٌ بلا أثرٍ، وجودُها كَلا وجود وهذا كلُّه اقْتَضى اسمًا موصولًا لابْتِناءِ صِلَةٍ عليْه.

(1) مجمع اللّغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (صمم).

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إِلَيهِ ضَميرَ جَماعَةٍ: ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾:

السَّمعُ أَكْثَرُ أَفْرادًا، وأَيْسَرُ وُقوعًا مِنَ النَّظَرِ

جُمِعَ فاعلُ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى ﴿مَّن﴾ لا على لفظِها، والمعنى: "ومِن هَؤُلاءِ الكُفّارِ مَن يَسْتَمِعُ إلى ما يَأْتي بهِ مِنَ القُرْآنِ بأُذُنِه، ولَكِنَّهُ حينَ لا يُؤْمِنُ ولا يُحَصِّلُ فكَأَنَّهُ لا يَسْمَعُ"[1]. والجَمعُ في ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾؛ لأنَّ السَّمعَ أكثرُ أفرادًا وأيسرُ وقوعًا مِن النَّظرِ، فالإنسانُ كثيرًا ما يسمعُ مَن لا يراه، ومُحالٌ أنْ يَرى كُلَّ مَن يَسمعُ[2]، كما أنَّ التَّعبيرَ بضميرِ الغَيْبَةِ إلاحَةٌ إلى عدمِ كونِهم لَيسوا أهلًا للخِطابِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْتِفْهامِ المَجازِيِّ:

الهادي إلى الحَقِّ هِدايَةَ التَّوْفيقِ هوَ الله وَحْدَه دونَ ما سِواهُ

الاستفهامُ المجازيُّ في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ لإنكارِ أنْ يكونَ الرّسولُ ﷺ قادرًا على هِدايةِ مَنْ لا تتوفَّرُ لديْه أسبابُ الهدايةِ مهما بَذَل مِن جهْدٍ، إنكارِ أن يَهْديَ مَن لم ينتفعْ بما سمعَه من آياتِ التَّنزيلِ فصار كَمَن فقَدَ السَّمعَ، بل فَقَدَ العقلَ أيضًا، فأنَّى للرَّسولِ ﷺ أنْ يَهْديَ مَن كانت هذه حالُه؟ و"هَمزَةُ الاسْتِفْهامِ إنْكاريَّةٌ، لا إنْكارًا لاسْتِماعِهم فإنَّهُ أمرٌ مُحَقَّقٌ؛ بَلْ إنْكارًا لوُقوعِ الاسْتِماعِ عَقيبَ ذَلك وتَرَتُّبِه عليْه حَسَبَ العادَةِ الكُلِّيَّةِ، بَلْ نَفْيًا لإمكانِه أيضًا، كَما يُنْبِئُ عنْهُ وضْعُ الصُّمِّ مَوْضِعَ ضَميرِهم ووَصْفُهُم بعَدَمِ العَقْلِ بقولِه تَعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أيْ: ولَو انْضَمَّ إلى صَمَمِهم عدَمُ عُقولِهم؛ لأنَّ الأصَمَّ العاقِلَ رُبَّما تَفَرَّسَ إذا وصَلَ إلى صِماخِهِ صَوْتٌ، وأمّا إذا اجْتَمَعَ فِقْدانُ السَّمعِ والعَقْلِ جَميعًا فقد تَمَّ الأمرُ"[3].

دلالَةُ الفاءِ في: ﴿أَفَأَنتَ﴾ ودلالَةُ حَذْفِ المَعْطوفِ:

الفاءُ عاطِفَةٌ على جملةٍ محذوفةٍ بَيْن همزةِ الاستفهامِ وحرفِ العطفِ، كَأَنَّهُ قيلَ: أيَسْتَمِعونَ إلَيْك فأنْتَ تُسْمِعُهم؟ والمعطوفُ عليه

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز، ص: 910.
(2) المَطْعَنيّ، التَّفسير البلاغيّ: 2/60.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/670.

محذوفٌ يدلُّ عليه ما بعدَه، وقد حُذِفَ تناسبًا مع واقعِ سماعِهم غيرِ المُجْدي ولا المُغْني.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِضَميرِ الخِطابِ:

ما عَلى الرَّسولِ إلّا البَلاغُ

في التَّعبيرِ بضميرِ خِطابِه ﷺ تخصيصٌ للخِطابِ به، ورفْعُ احتمالِ أنْ يُقْصَدَ بالخطابِ غَيرُهُ ﷺ وليَتَأتَّى أنْ يُقال لَه ﷺ: "أأنْتَ خصوصًا قد أوتيتَ أنْ تُسْمِعَ الصُّمَّ؟ وأنْ يُجْعَلَ في ظَنِّه أنَّه يَستطيعُ إسْماعَهم بمثابةِ مَن ظَنَّ أنَّه قد أوتي قُدْرَةً على إسْماعِ الصُّمِّ"[1].

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ عَلى خَبَرِهِ الفِعْليِّ:

لَيْسَ إسْماعُ الصُّمِّ مِمّا يَدَّعيهِ أحَدٌ

قُدِّم المُسْنَدُ إليه على خبرِه الفِعْليِّ في: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾؛ لأنَّه مَحطُّ الإنكارِ، بيانُ ذلك أنَّه "لَيس إسماعُ الصُّمِّ مِمّا يَدَّعيه أحَدٌ فيكونُ ذلك للإنكارِ، وإنَّما المعنى فيه التَّمثيلُ والتَّشبيهُ، وأنْ يُنَزَّلَ الَّذي يَظُنُّ بهم أنَّهم يُسْمَعون، أو أنَّه يستطيعُ إسْماعَهم، منزلةَ مَن يَرى أنَّه يُسْمِعُ الصُّمَّ، ويَهْدي العُميَ"[2]. وقُدِّمَ أيضًا المُسْنَدُ إليه على خبرِه الفعليِّ هُنا لإفادةِ القَصْرِ، والقَصْرُ للإفرادِ، حيثُ نُزِّل الرَّسولُ ﷺ لحرْصِه الشَّديدِ على هدايةِ النّاسِ منزلةَ مَن يَعتقدُ أنَّه قادِرٌ مع اللّه تعالى على هدايةِ المُنْكرين لرسالتِه.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿تُسْمِعُ﴾:

تَكَرُّرُ اسْتِماعِ المُشْرِكينَ لآياتِ الله

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارِعِ دون اسْمِ الفاعِلِ؛ للإشارةِ إلى تَكَرُّرِ استماعِ المُشْرِكين لآياتِ اللّه تعالى والرَّسول ﷺ يتلوها، وفي التَّعبيرِ بالمضارعِ دلالةٌ على اجتهادِه ﷺ في البلاغِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالاسْتِعارَةِ في: ﴿ٱلصُّمَّ﴾:

تَعْليلُ عَدَمِ انْتِفاعِ المُشْرِكينَ بِما يَسْمَعونَ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ

شُبِّه المُشْرِكون الَّذين يَستمعون إلى آياتِ اللّه وهي تُتْلى غَضَّةً نَديَّةً منه ﷺ بالصُّمِّ؛ لعَدَمِ انتفاعِهم بما يَسمعون، وبلاغةُ

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 120.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 120.

الاستعارةِ الأصليَّةِ هُنا أنَّها جاءتْ تعليلًا لعدمِ انتفاعِ المُشْركين بما يَسمعون منَ القرآنِ الكريمِ، و"في هَذَيْنِ الاسْتِفْهامَيْنِ تَرْشيحٌ لاسْتِعارَةِ الصَّمِّ والعُمي لهَؤُلاءِ الكافِرينَ، أي: أنَّ اللّه لَمّا خَلَقَ نُفوسَهم مَفْطورَةً على المُكابَرَةِ والعِنادِ وبَغْضاءِ مَن أنْعَمَ اللّه عليْهِ وحَسَدِهِ، كانَتْ هاتِهِ الخِصالُ حَوائِلَ بَيْنَهم وبَيْنَ التَّأثُّرِ بالمَسْموعاتِ والمُبْصَراتِ، فجيءَ بصيغَةِ الاسْتِفْهامِ التَّعْجيبيِّ المُشْتَمِلَةِ على تَقَوّي الخَبَرِ بتَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ على الخَبَرِ الفِعْليِّ بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ﴾ وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى﴾ دون أنْ يُقال: (أتُسْمِعُ الصُّمَّ؟) و(أتَهْدي العُميَ؟)، فكانَ هذا التَّعْجيبُ مُؤَكَّدًا مُقَوًّى"[1].

نَوْعُ الواوِ في: ﴿وَلَوْ﴾:

(لَـوْ) الوَصْليَّةُ لِلدّلالَةِ عَلى المُبالَغَةِ في الأَحْوالِ

"الواوُ في قولِه: ﴿وَلَوْ﴾ عاطفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ تقديرُها: أأنت تُسْمِع الصُّمَّ لَو كانوا يَعقلون، ولَو كانوا لا يَعقلون؟. وهي (لَو) الوَصْليَّةُ للدّلالةِ على المُبالغةِ في الأحوالِ حسبَ اقتضاءِ المقامِ"[2]. وهي الَّتي يكونُ ما بَعْدَها أقصى ما يَتَعَلَّقُ به الغرضُ مِن الكلامِ، ولذلك يُقَدِّرون قَبْلَها جملةً معناها ضدُّ الجملةِ الّتي دَخَلَت عليها (لَو).

دلالَةُ الخَتْمِ بِأُسْلوبِ الشَّرْطِ:

تَيْئيسُ النَّبيِّ ﷺ مِـنْ هِدايَتِهِم

جملةُ الشَّرطِ في قولِه: ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ كنايةٌ عن التَّيْئيسِ مِن هدايةِ هؤلاءِ، حيثُ شَبَّهَهم أوَّلًا بالصُّمِّ في عدمِ اهتدائِهم بالقرآنِ، وبولِغ في بيانِ صُدودِهم فجعلَهم مَسْلوبي العقولِ؛ لأنَّ اجتماعَ هاتَيْنِ الآفتَيْنِ: الصَّمَمِ، وعَدَمِ التَّعقُّلِ والإدراكِ يَسْلبان عمَّن أُصيبَ بهما كُلَّ وسائلِ التَّأثُّرِ، فهُم كالدُّمى، أشكالُها أشكالُ الإنسانِ، وطبيعتُها طبيعةُ الجماد أو الحَيوان[3]. ومِمّا يلْفِتُ الانتباهَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير 11/178.
(2) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/58.
(3) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/60.

في هذه الآيةِ الكريمةِ والَّتي تليها هو هذا التكثيفُ في إثباتِ عدَمِ هدايةِ هؤلاءِ المُعْرِضين، لإعراضِهم عن الحقِّ الَّذي جاء به الرَّسولُ ﷺ ثُمَّ ارتقى الإنكارُ في بيانِ بُعْدِهم عن الحَقِّ فجُعِلوا مَسْلوبي العقولِ؛ لأنَّ اجتماعَ الصَّممِ، وعدمِ التَّعقُّلِ يَسُدّان كُلَّ منافذِ التَّأثيرِ أمامَ مَن اتَّصفَ بهما. وفي الآيةِ أيضًا كنايةٌ عن تَيْئيسِه ﷺ من هدايتِهم. وفي هذه الآيةِ إدماجٌ بديعٌ، حيثُ جَمعت بَيْن أكثرَ من غرضٍ ولَونٍ بلاغيٍّ[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ في: ﴿يَعْقِلُونَ﴾:

دَلَّ المضارعُ على تجدُّدِ عدمِ انتفاعِهم بالحقِّ كُلَّما استمعوا للّه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَعْقِلون) و(يَفْقَهون):

العقلُ في اللُّغةِ: الحبسُ، والمنعُ، يُقال: عقلتُ البعير أعقِلُه عقلًا: قيّدته بما يحبِسُه عن الانبعاثِ[2]. ومِن ذلك العقل، وهو الحابِسُ عن ذميمِ القولِ والفعلِ[3]؛ لذلك سُمّي العقلُ بهذا الاسم. والمرادُ بالعقلِ: الفهمُ والإدراكُ والتّدبُّرُ والوعيُ بمرمى الأشياءِ وأغراضِها.

والفِقهُ في اللُّغةِ: العِلمُ بالشّيءِ، والفهمُ له، والفِطنةُ[4]. تشتركُ الكلمتان: (العقلُ والفِقهُ) في الدّلالةِ على الفهم والوعي والإدراكِ، ويتميّزُ الفِقهُ بِملامِح دلاليّةٍ فارقةٍ؛ هي: التَّأمُّلُ، والاستنباطُ، والإحاطةُ، والتّريُّثُ قبل إصدارِ حُكم[5]. والمُناسِبُ هُنا التّعبيرُ بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لأنَّه المرحلةُ الأولى في الفَهْمِ.

يَتَمَيَّزُ الفِقْهُ بِمَلامِحَ دلاليَّةٍ فارِقَةٍ هِيَ التَّأَمُّلُ، والاسْتِنْباطُ، والإِحاطَةُ، والتَّرَيُّثُ قَبْلَ إِصْدارِ حُكْمٍ

(1) الروينيّ، البلاغة القرآنيّة في الحديث عن النَّبيّ ﷺ، ص: 709.
(2) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (عقل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقل).
(4) مجمع اللُّغة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (فقه).
(5) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 362.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»